

عنتر بن شداد وعبلة

الفارس الأسود.. أسير الغرام

عنتر بن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي، ولد عام 525 م بأرض الجزيرة فيما يسمى الآن ببلدة قصباء بمنطقة القصيم، وهو أحد أشهر شعراء العرب في فترة ما قبل الإسلام، اشتهر بشعر الفروسية، وله معلقة مشهورة. وهو أشهر فرسان العرب وأشعرهم وشاعر المعلقات والمعروف بشعره الجميل وغزله العفيف بعبلة.

كان الأقدمون لا يعرفون بأيهما كان يدعى: بعنتر أم بعنتر فقد اختلفوا أيضًا في كونه اسمًا له أو لقبًا، كان عنتر يلقب بالفلاح من الفلح، أي شق في شفته السفلى، وكان يكنى بأبي الفوارس لفروسيته ويكنى بأبي المعایش.

أمه زبية أمة من إماء بنو عبس، وقد ورث السواد من أمه زبية، إذ كانت أمه حبشية وبسبب هذا السواد عده القدماء من أغرب العرب، وذاق في صباه ذل العبودية، والحرمان وشظف العيش والمهانة، لأن أباه لم يستلحقه بنسبه، فتاقت روحه إلى الحرية والانتعاق فلم ولم يكن ابن الأمة يلحقه بنسب أبيه إلا إذا برز وأظهر جدارته واستحقاقه للحرية والعتق، والشرف الرفيع، وهذا ما حصل في حال عنتر الذي اشترى حرته بسيفه وترسه وبراعه شعره.

فَيَرُؤُونَ أن قومًا أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم وعنتر فيهم، فقال له أبوه: كِرِّ يا عنتر، فقال عنتر: العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلب والصر، فقال: كِرِّ وأنت حر، فكِرِّ وأبلى بلاء حسنًا يومئذ فدعاه أبوه

بعد ذلك وألحقه بنسبه، وقد بلغ الأمر بهذا الفارس الذي نال حرته بشجاعته أنه دوّخ أعداء عبس في حرب داحس والغبراء، الأمر الذي دعا الأصمعي إلى القول بأن عنتره قد أخذ الحرب كلها في شعره وبأنه من أشعر الفرسان.

اشتهر عنتره بقصة حبه لابنة عمه عبلة بنت مالك، وكانت من أجمل نساء قومها، وأبعدهم صيتًا في اكتمال العقل ونضرة الصبا، بينما كان عنتره ابن أمة أسود البشرة، أحبّ عنتره ابنة عمه عبلة بنت مالك أعظم الحب وأشدّه، ويقال إنه كان من أقسى ما يعيق هذا الحب صلف أبيها مالك وأنفة أخيها عمرو.

ارتفع موضع عنتره وزاد في عبلة طمعه، وكانت هي سبب فصاحته لأنه كلما ذكرها انطلق لسانه بالشعر الرقيق، حتى وقعت هيئته في قلوب الأنام، وسمعت بذلك الشعر أم عبلة وأبوها، غير أنهما لم يكثرنا به، فلما كثر الحديث عند أم عبلة دعت عنتره إليها، وقالت له: "يا عنتره، سمعت أنك تحب ابنتي وتذكرها في شعرك".

وكانت عبلة بجانبها وقد أرخت ذوائبها، وسمعت أمها تقول لعنتره ذلك المقال، فتبسمت عن ثغر نادر المثال فازداد بعنتره الهيام، وقال: يا سيدتي. هل رأيت من يبغض مولاته؟! أي والله أحبها وحبها لا أنكره وصورتها لا تبرح ناظري، فقالت له: سأطلب لك من زوجي أن يزوجك خمسية جارية ابنتي عبلة فليس لها شبيهه في الجمال ولا حاز مثلها رجل من الرجال، فتبسّم عنتره في حسرة وقال: والله ما أتزوج غير من يهواه الفؤاد، فهمست عبلة في أذن عنتره: بلّغك الله أمانيك.

وأكثر عنتره من التغزّل بابنة عمه عبلة بأشعاره حتى تناقلها العرب، وقيل بعضها بين يدي شاس بن الملك زهير، والربيع بن زياد. وكان في مجلس شرب، وكان عندهما عمرو أخو عبلة، فقال شاس:

لقد أعجب هذا العبد بنفسه وترفع عن العبيد، فقال الربيع: والله ما أطمعه في ذلك إلا أبوك وأخوك مالك، فثارت نفس عمرو وقال: والله لئن سمعته يذكر أختي في شعره لأسفكن دمه، وشاعت أبيات عنتره في جميع القبائل فازداد حقد أخي عبلة وأثار عليه شاس بن الملك زهير والربيع بن زياد، فواعداه على قتله.

يا عِبَلِ إِنَّ هَؤُوكِ قَدْ جَاوَزَ الْمَدَى
وَأَنَا الْمُعْتَى فَيْكِ مِنْ دُونِ الْوَرَى
يا عِبَلِ حُبُّكَ فِي عِظَامِي مَعَ دَمِي
لَمَّا جَرَّتْ رُوحِي بِجِسْمِي قَدْ جَرَى
وَلَقَدْ عَلِقْتُ بِبَدِيلٍ مَنْ فَخَرْتُ بِهِ
عَبَسٌ وَسَيْفٌ أَبِيهِ أَفْنَى جَمِيرَا
يا شَاسُ جَرْنِي مِنْ غَرَامٍ قَاتِلِ
أَبَدًا أَزِيدُ بِهِ غَرَامًا مُسْعِرَا

وبينما كان عنتره يحرس ركب النساء والأولاد ذات رجلة، وأغار بعض القوم على قافلهم، فلما اقتربوا منه صرخت النساء وبكى الأطفال ونظر عنتره إلى عبلة فرأى دموعها تنحدر على خديها وسمية وأم عبلة تصيحان بالويل والحرب، فتقدم عنتره إلى أم عبلة وقال لها: أتزوجيني عبلة حتى أرد هذه الخيل من أول حملة، فقالت: ويلك يا عنتره، أفي مثل هذا الوقت يكون المزاح والأجساد قد كرهت الأرواح. فقال عنتره: لا وحق خالق الصباح، إن وعدتني بذلك رددت هذه الخيل كلها على أعقابها وأعطيتك كل عددها، فقالت: دونك الخيل ولك ما تريد، غير أنها لم تكن تضمر له الوفاء.

وعندما سمع عنتره منها ذلك سرَّ وركب الجواد وتهياً وأمر العبيد بترك الجمال، وحلَّ الرحال وقال لأخيه شيبوب: احم بنالك ظهري، وأنا أتلقَّى الخيل بصدري، وما كاد يهجم عليه القوم حتى صاح بهم وإذا بسيفه قد طَوَّق النحور، وخاض في الأحشاء، ولم يلبث أن أهلك منهم ثلاثين فارسًا.

لي كم أداري من تُريدُ مَذَلَّتِي
وَأَبْذُلُ جُهْدِي فِي رِضَاهَا وَتَغَضَّبُ
عَبِيلَةُ أَيَّامِ الْجَمَالِ قَلِيلَةٌ
لَهَا دَوْلَةٌ مَعْلُومَةٌ ثُمَّ تَذَهَبُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي عَلَى الْبُعْدِ نَادِمٌ
لَا الْقَلْبُ فِي نَارِ الْغَرَامِ مُعَذَّبُ
قَدْ قُلْتُ إِنِّي قَدْ سَلَوْتُ عَنِ الْهَوَى
مَنْ كَانَ مِثْلِي لَا يَقُولُ وَيَكْذِبُ
هَجَرْتُكَ فَاَمْضِي حَيْثُ شِئْتِ وَجَزِي
مَنْ النَّاسِ غَيْرِي فَالْلَبِيبُ يُجَرِّبُ

فتقدم عنتره إلى عمه مالك يخطب ابنته عبلة، ولكنه رفض أن يزوج ابنته من رجل أسود، رغم أن الملك زهير بعدما أبلى عنتره بلاء حسناً في كل معاركهم مع المغيرين عليه وأولاده قد قرَّبه من مجلسه، وخلع عليه لباسه، ومنحه الذهب، ورفض أن يسقي الشراب كبقية العبيد، ويقال إن أبا عبلة لما رأى من تقرب زهير لعنتره وحثه على الموافقة على زواجهما، طلب منه تعجيزاً له وسدّاً للسبل في وجهه ألف ناقة من نوق النعمان المعروفة بالعصافير مهراً لابنته، ويقال: إن

عنتره خرج في طلب عصافير النعمان حتى يظفر بعبلة، وإنه لقي في سبيلها أهوالاً جساماً، ووقع في الأسر، ثم تحقق حلمه في النهاية وعاد إلى قبيلته ومعه مهر عبلة ألفاً من عصافير الملك النعمان، ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططاً، ثم فكر في أن يتخلص منه، فعرض ابنته على فرسان القبائل على أن يكون المهر رأس عنتره.

واختلف الباحثون على نهاية قصة حب عنتر وعبلة، فمنهم من يرى أن عنتره فاز بعبلة وتزوجها، ومنهم من يرى أنه لم يتزوجها، وإنما ظفر بها فارس آخر من فرسان العرب، وذهب البعض إلى القول بأن عنتره لم يتزوج عبلة، بل تبثّل في حياها، وأن أباه وأخاه منعاه زواجها، وأنها زوّجت أحد أشرف قومها على رغم عنتره، وقد قاس أصحاب هذا الرأي قولهم هذا قياساً على عادة العرب من منعها بناتها أن يزفن إلى من يحبهن قبل الزواج، حتى أنه أنشد فيها معظم شعره.

سلي يا عبلة الجبلين عنّا

وما لاقت بنو الأعجام منّا

أبدنّا جمعهم لما أتونا

تموج مواكب إنسا وجنا

وراموا أكلنا من غير جوع

فأشبعناهم ضرباً وطعنا

ضربناهم ببيض مرهفات

تقدّ جسومهم ظهراً وبطننا

وفرّقنا المواكب عن نساء

يزدنّ على نساء الأرض حسنا

ويميل البعض إلى الرأي القائل أن عنتره تزوج عبلة لعوامل وأسباب، منها أنه قد استحلق بنسب أبيه فزالته عنه هجنة النسب وأصبح ابن عمّ لعبلة. ثم إنه كان من أشهر فرسان قبيلة بني عبس بل فرسان العرب، وقوته وفروسيته مما لا يغفله من حسابه من يريد زواج عبلة، إذ أنه سيتعرض للانتقام عنتره وثأره لكرامته.

ولكن في أغلب الظن أن عنتره لم يتزوج عبلة. ولكنه قضى حياته راهباً متبتلاً في محراب حياها، يغني لها ويتغنى بها، ويمزج بين بطولته وحبه، وهذا ما يفهم من بعض شعره، بل إنه وصف زوجها بأنه فارس عربي ضخم أبيض اللون، حيث يقول لها في إحدى قصائده الموثوق بها التي يروها الأصمعي:

إِذَا تَرَيْتَنِي قَدْ نَحَلْتُ وَمَنْ يَكُنْ

عَرَضًا لِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ يَنْحَلِ

فَلرَبِّ أَبْلَجَ مِثْلَ بَعْلِكَ بَادِنِ

ضَخْمٍ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ مُهَيَّلِ

غَادِرْتُهُ مَتَعَفْرًا أَوْصَالَهُ

وَالْقَوْمُ بَيْنَ مَجْرَحٍ وَمَجْدَلِ

وقد كانت عبلة وظلت الأثرية في حياته وحتى مماته. وقد انتهت حياة عنتره بعد أن بلغ التسعين من عمره، ومات مقتولاً إثر رمية سهم، وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص من قبيلة طيء، وكان لامارتين الشاعر الفرنسي معجباً بميتة عنتره الذي ما إن أصيب بالسهم المسموم وأحس أنه ميت لا محالة، حتى ظل ممتطياً صهوة جواده، مرتكزاً على رمحه، وأمر الجيش بأن يتقهقر وينجو من بأس الأعداء، وظل في وقفته تلك حامياً ظهر الجيش والعدو يبصر الجيش الهارب،

ولكنه لا يستطيع اللحاق به لاستبسال قائده البطل في الذود عنه ووقوفه دونه، حتى نجا الجيش وأسلم عنتره الروح، باقياً في مكانه، متكئاً على الرمح فوق جواده الأجر.

إن المصادر القديمة لا تمدنا بكثير من تفاصيل قصة عنتر وعبلة، ولكنها في إطارها العام قصة ثابتة لا شك فيها خلدها عنتر بنفسه في شعره الذي يفيض بأحاديث حبه وحرمانه.

ولكن تذكر بعض المراجع في سيرة عنتر بن شداد أنه بعدما حارب كثيراً ليتزوج من ابنة عمه عبلة العبسية وتزوجها وتزوج من بعدها ثمان أخريات، وأنجب من الأولاد عددًا كبيراً اختلف المؤرخون في عدد الزوجات والأبناء، ولكن معظمهم أكد على أنه تزوجها بالفعل وفاز بها وبقلبيها ونسبها ثم تزوج العديد من النساء من بعدها.